لماذا انهزمنا؟

ما موقفنا بعد هذه النكبة الكبرى؟ نكبة ٥ حزيران[١] (يونيو) ١٩٦٧، وهي النكبة الثانية أو الثالثة في أقل من عشرين عاما؟ من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧.

ما موقفنا؟ وما دورنا؟ وماذا نصنع وقد خابت آمال كبار، وتبخرت أحلام عذاب، وتهاوت آلهة كان قوم منا يطوفون بها ويرجون نفعها عند الشدة، وعونها عند الكربة ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾![٢].

هذا هو السؤال الذي يدور على كل لسان ويجول في كل فكر، ويشغل كل منتدى، ما موقفنا وماذا نصنع؟ ماذا علينا لنغسل العار ونحرر الديار، ونطرد منها اللصوص الغاصبين ونردها إلى أهلها الشرعيين؟.

---

(١) وهي التي سموها «النكسة» ولا أدري لماذا، هل انتصرت قضية فلسطين قبل ذلك ثم انتكست في حزيران؟ اللهم إلا إذا عدوا وجود البوليس الدولي، وضياع مضايق تيران وشرم الشيخ في ١٩٥٦ انتصاراً ظفرت به قضية فلسطين... أما الواقع فالقضية الفلسطينية تسير ـ على أيدي هؤلاء من سيء إلى أسوأ، ومن أسوأ إلى الأسوأ!

(٢) سورة هود، الآية: ١٠١.

والجواب الذي لا يختلف فيه اثنان: أن علينا أن نفعل ما يفعله العقلاء إذا تورطوا في المضايق وأحاطت بهم الشدائد، وسدت عليهم المسالك: علينا ـ قبل كل شيء ـ أن نفكر.

وألا تمر بنا لأحداث الضخام ونحن في غفلة لاهون وفي غمرة ساهون... علينا أن نفكر في نكبة الأمس لنستخلص عبرة للغد. ولا نكون كالذين وصف الله موقفهم من عبر التاريخ فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

وليس مطلوباً منا أن نسير في الأرض ولا أن نضرب في أرجائها لنرى و نسمع ونعتبر ونعقل فنحن نعيش في قلب العبرة، بل نحن أصحابها وصناعها.

وإن أمة دعاها كتابها إلى التفكير والنظر في عشرات الآيات من شتى سوره. وجعل دينها التفكير فريضة وعبادة، وتعلمت من تراثها: أن التفكير ساعة خير من عبادة سنة ـ لجديرة أن تدع الإرتجال والتهريج، وتفكر لغدها بأناة وعمق، وأن تثبت وجودها بحسن تفكيرها فمن قبل قال ديكارت: «أنا أفكر، إذن أنا موجود».

وإني أخشى أن يقول فينا قائل: أنتم غير موجودين لأنكم لا تفكرون.

وأول ما يجب علينا أن نفكر فيه، أن نسأل أنفسنا: لماذا انهزمنا: فإن الذي لا يعرف لماذا انهزم لا يعرف: كيف ينتصر.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

لا أريد أن أسأل عن هزيمة سبع دول عربية سنة ١٩٤٨ فقد يكتفي الكثيرون بأن الذين سببوا الهزيمة لفظتهم الشعوب و كنسهم التاريخ بمكنسته وأصبحوا نسياً منسيا. ولا داعي ـ على أية حال ـ لنبش القبور واستثارة الرمم.

وإنما الذي يعنينا هنا أن نسأل، لماذ انهزمنا في ١٩٦٧ وبعد تسعة عشر عاماً من النكبة الأولى، وبعد أن قامت في عدد من البلاد العربية حكومات ثورية تقدمية متحررة! تنفق على ميزانيات جيوشها مئات الملايين في تسليحها وتدريبها واعدادها ليوم اللقاء، وساعة الثأر!!

* * *

• ألوان من التفكير في سبب الهزيمة:

أعرض هنا ـ بكل أمانة ـ ألواناً من التفكير ظهرت بعد النكبة الثانية تحاول أن تفسر الواقع وتعلله: وهي ألوان بعضها يستدر الدمع، وبعضها يستفرغ الضحك من الأفواه. وشر المصائب ما يضحك.

• هزيمة ولا هزيمة:

كان من غرائب التفكير ما سمعناه بعد النكبة من بعض المسؤولين في أكثر من بلد عربي: أننا لم نهزم ولم نخسر المعركة!

قال هؤلاء: أن العدو يهدف إلى اسقاط النظام الثوري قبل أن يهدف إلى احتلال الأرض، فإذا بقي النظام ـ رغم خسارة الحرب ـ ولم يسقط، فقد فشل العدو، وعاد مدحوراً مخذولاً[1].

---

(١) كان الحكم الثوري في سوريا أول من أوحى إليه باستخدام هذا التعبير =

هذا هو المنطق السحري الذي روجه هؤلاء: أن احتلال الأرض ليس شيئاً مهما، وخسارة الأرض ليس لها قيمة كبيرة، إذا بقى النظام الحاكم. وإن كانت هذه الأرض أضعاف مساحة إسرائيل، وأن كان حجم الخسارة ما بين القنطرة والقنيطرة!

فيا عجبا! ليست قضية فلسطين من أساسها قضية أرض احتلها عدو؟ وهل قامت الصهيونية إلا من أجل الأرض؟ وهل الأوطان التي يدافع عنها الناس ويقاتلون عليها إلا أرض؟.

وهل صحيح أن الأنظمة الثورية العربية تعاديها إسرائيل وتخاصمها إلى حد إشعال الحرب من أجل إسقاطها؟ وهل الزعماء الثوريون هم «البعبع» الذي تخافه إسرائيل وترهب سطوته؟ وهل في تاريخ الثوريين وموقفهم من قضية فلسطين ما يؤيد هذا المنطق العجيب؟.

كلا. فليس هناك أفضل من هؤلاء الثوريين لإسرائيل. فهم في شغل عنها بمحاربة القوى الوطنية المخلصة واضطهادها وكتم أنفاسها، هم في شغل عن تعبئة الأمة بشؤون الحزب، وعن آمال الشعب بمطامع الفئة الحاكمة، وعن قتال إسرائيل بقتال الرجعية المزعومة. فالحزب عندهم فوق الأمة، والحكام (الثوريون طبعاً) فوق الشعب. والمذهب فوق الدين، والرجعية أخطر من إسرائيل.

ولا عجب إن قيل في بعضهم: أنهم لم يحاربوا، ولا ينوون أن يحاربوا[1].

= المبدع! ثم ردده آخرون!!.

(١) هكذا قال الرئيس المصري في ثوريي سوريا.

ثم نقول لهؤلاء الثوريين: ما ذنب النظام الأردني ـ الرجعي ـ حتى يضرب هذه الضربة، ويفقد الضفة الغربية والقدس؟ أم لعل رأيهم تغير في حكم الأردن وملك الأردن؟!

* * *

• حكاية التدخل:

ذلك لون من المِنطق المتبجح الجريء الذي سمعه الناس بعد الهزيمة: أننا لم ننهزم.

ومثل هذا المنطق في العوج: منطق الذين اعترفوا بوقوع الهزيمة، ثم اخترعوا لتبريرها وتعليلها حكاية التدخل الإستعماري الامبريالي الأمريكي.

والذين اخترعوا هذا وأذاعوه يعلمون أنهم كاذبون[1] ولكنهم خجلوا كيف يواجهون الشعب بعد أن ملأوا الآفاق بالتهديد والوعيد، فهداهم الشيطان إلى هذا «المخدر» الذي ثبت فشله وبطل مفعوله بسرعة.

ولو صح أن تدخلا استعمارياً حدث فهل هذا عذر يعفي أصحاب السلطان من المسؤولية؟ كلا فالمفروض أن مثل هذا يتوقع، ولا بد أن يواجه كل احتمال بالاستعداد، وطالما قال الذين يملكون القول: سنؤدب إسرائيل ومن وراء إسرائيل.

---

(١) ثبت يقينا كذب هذا الادعاء من مذكرات الملك حسين عن حرب حزيران وكتاب «المؤامرة ومعركة المصير» للسيد سعد جمعة رئيس وزراء الأردن، وقت الحرب.

ومهما يكن فقد تراجع الذين اخترعوا هذا «المخدر» عنه واعتذروا عن صنعه وترويجه. فلا داعي إلى الإطالة فيه.

* * *

• نكبة سببها غلطة!

واذا كانت الهزيمة حقيقة واقعة ـ على مرارتها ـ ولم يكن سببها التدخل المزعوم. فما سببها إذا؟ وقد استعددنا لها تسعة عشر عاما، واشترينا لها السلاح من كل مكان وأعددنا لها قوى البر والبحر والجو؟

هنالك طفق الكتّاب والمعقبون يفتشون عن سبب هذه الكارثة التي لم تكن متوقعة إلا عند قليلين من ذوي البصائر، الذين يفقهون سنن الله في خلقه، ويقيسون قوى الأمم والجيوش بالكيف لا بالكم، وبالروح لا بالمادة، وبالمعنى لا بالصورة، وبالعمل الهادىء لا بالصياح المدوي.

قال بعض الكاتبين: أننا هزمنا بسبب غلطة... غلطة حربية لا غير، هي التي جلبت كل هذا العار، وكل هذا الدمار، كنا نتوقع أن يأتينا العدو من الشرق أو الشمال فجاءنا من الغرب وأخذنا على غرة وسبق بالضربة الأولى ـ وهي نصف المعركة كما يقال ـ وحطم الطيران كله، ودمرت المطارات قاطبة، وفقدنا أكبر قوة جوية عربية في ثلاث ساعات. ثم تتابعت الهزائم، وتلاحقت الخسائر. فخسرنا ٨٠٪ من معدات الجيش المصري أكبر قوة عربية ضاربة، وغنمت إسرائيل من العتاد والذخائر والتموين ما لم يخطر لها على بال. وسقطت غزة وسيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان قبل أن تتم دورة الأسبوع،

وأصبح الطريق مفتوحاً أمام إسرائيل إلى العواصم الكبرى: القاهرة ودمشق وعمان ولم يكن هناك أية مقاومة لو أرادت إسرائيل الزحف إلى العواصم، كما اعترف بذلك رئيس مسؤول.

كل هذا نتيجة غلطة: ظننا العدو لا يبدأ بالهجوم، و لكنه خيب ظننا وبدأ، وظنناه ـ لو بدأ ـ يأتينا من جهة فجاءنا من أخرى، وكأنما كان على العدو أن يعطينا خبراً مقدماً عن الجهة التي ينوي منها المجيء إكراماً لخاطرنا!!

ولماذا لا نتوقع أن يبدأنا العدو بالهجوم في أية لحظة؟ وكيف نستبعد أن يجيئنا من أية جهة؟ وكيف لا نأخذ لكل احتمال أهبته؟ لو كان قادتنا يعرفون شيئاً اسمه «صلاة الحرب» في الإسلام، وقرأوا ما جاء بشأنها في القرآن لعرفوا قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[1] ولكنهم في شغل عن الصلاة بالترفيه وأحفال الترفيه.

ولو كانوا يفقهون السيرة النبوية لعلموا من غزوة تبوك أن النبي ﷺ حين تبين له النية العدوانية عند الروم، لم ينتظر حتى يغزوه في عقر داره، بل أخذ زمام المبادرة، فبدأهم قبل أن يبدأوه وغزاهم قبل أن يغزوه. وكذلك كان موقفه من هوازن لما علم بتربصهم ونيتهم

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٢، وأولها: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ. . .﴾.

هاجمهم قبل أن يهاجموه[1].

ولو كانوا يقرأون القرآن لَوَعُوا أمر الله تعالى للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[2].

وأنا وأنت أيها القارىء لا نفهم في الشؤون العسكرية فهم المتخصصين، ولا ندري كم كان يحب أن يكون في الجو من طائراتنا وكم كان يبقي في مطاراته. ولم نقرأ مذكرات روميل ومونتجمري عن حرب الصحراء، ولا نعرف: هل وضع ٨٠٪ من عتادنا في خط النار مرة واحدة سياسة عسكرية سليمة أم لا؟ أنا وأنت لا ندري هذا ولا نستطيع الحكم فيه، وعلينا أن نسأل أهل الذكر ممن يعلمون.

ولكن الذي ندريه جيداً أن المفروض فيمن يواجهون مثل هذا الموقف أن يحتاطوا للمفاجآت ويعدوا لكل أمر عدته.

والحقيقة أن الهزيمة أخطر وأكبر وأعمق من أن تعلل بغلطة عسكرية نشأت من اجتهاد أخطأ، فإنها لم تكن مجرد تقهقر أو انسحاب من معركة، إنما هو انهيار لم نسمع بمثله، حتى الدول الصغرى التي سقطت أمام الجيوش النازية المباغتة قاومت أكثر من هذا، ولم تسقط بهذه السهولة وهذه السرعة مع أننا نحن الذين بدأنا التحدي واستعرضنا العضلات.

---

(١) قال ابن القيم في «زاد المعاد» في بيان مافي غزوة حنين من العبر: «إن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم كما سار رسول الله ﷺ إلى هوازن، حتى لقيهم بحنين». ولكن قادتنا قوم تقدميون لا يليق بهم أن يرجعوا أربعة عشر قرنا ليتعلموا من محمد رسول الله!!.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧١.

أنها إذن ليست غلطة منشؤها الأجتهاد الذي يعذر صاحبه إن أخطأ ـ أو يؤجر ـ بل هي جريمة كبرى مصدرها الأنانية والهوى والطغيان.

خذ مثلا: موقف قادة الطيران الذين قضوا ليلة النكبة في حفل ساهر راقص، ونواقيس الخطر تقرع آذانهم، والعدو واضع أصابعه على الزناد، والبركان على وشك الإنفجار في أية ساعة من ليل أو نهار. وهل يعد سلوكهم هذا اجتهاداً أم جناية دفع إليها انحلال الاخلاق وغلبة الشهوات، وفساد الضمائر، وانتقاض عرا الإيمان؟

ليست المسألة اذن غلطة أدت إلى خسارة الحرب، فإن هذه الغلطة وما تبعها من غلطات كانت نتيجة ولم تكن سبباً.

كانت نتيجة حتمية لحياة واتجاه وسلوك لا بد أن يجر إلى هذه النهاية أو ما يشبهها. ثم... من المسؤول عن هذا الغلط؟

إن الصياد الذي يصيب إنساناً بطريق الغلط عليه شرعا أن يدفع ديته مسلمة إلى أهله، وأن يكفر عن غلطه بتحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين..

فكيف بمن قتل ألوفاً مؤلفة وشرد عشرات الألوف وأضاع أوطاناً فسيحة؟

ولكن المشكلة كيف نعرف المسؤول، وإذا عرفناه فكيف نحاسبه؟ ومن يملك محاسبته؟.

وهب أن المسؤول الأول عن النكبة اعترف بلسانه أنه مسؤول، وأنه يتحمل المسؤولية كاملة، فأين الذي يتولى الحساب، ويتولى بعده الجزاء؟

ولكن لماذا الحساب والعقاب؟ ألم نقرأ في السيرة أن النبي ﷺ قد انهزم في أحد؟ أفنحن أفضل من رسول الله ﷺ وأكرم عند الله؟

هكذا يتشدق بعض الناس.

ومن المريب حقا أن قوما لم يتخذوا رسول الله قدوة في حياتهم الخاصة ولا العامة، ولم يجعلوا سنته مصدراً لتوجيههم ولا تفكيرهم يعثرون على غزوة أحد وما أصاب المسلمين فيها من هزيمة وانكسار، فإذا هم يقولون: أننا لسنا أول من هزم.

إن لنا في أحد أسوة وسابقة. ولو صدقوا لرجعوا إلى أنفسهم باللائمة وتلوا قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[1].

لو صدقوا في اقتدائهم بأحد، لغيروا من اتجاههم وأعلنوا ندمهم وتوبتهم وقالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا.

لو صدقوا في اقتدائهم بأحد وأهل أحد لأعدوا أنفسهم لمعركة جديدة ولم يعتمدوا على أوهام بعيدة تعفيهم من تبعات الجهادالمقدس، ولم يجروا وراء أوهام الحل السياسي وما شابهها.

أما أهل أحد فخرجوا من اليوم الثاني، وجراحاتهم لم تجف دماؤها، للقاء عدوهم المغرور بنشوة الظفر ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾[1].

* * *

• الخيانة:

وسلك آخرون طريقا قصيرة لتعليل الهزيمة، فقالوا: أن سببها هو الخيانة.

ومعنى الخيانة: بيع الوطن لإسرائيل في مقابل كسب شخصي أو حزبي أو طائفي، ونحن لا نستبعد أن يكون هناك خونة باعوا أوطانهم من أجل عرض يسير من الدنيا، يصيب أشخاصهم أو حزبهم أو طائفتهم. ومن لا إيمان له لا أمانة له. ومن لا دين له لا عهد له. ومن خان الله ورسوله لا يكثر عليه أن يخون الأوطان.

ولكننا نستبعد أن يكون الجميع قد خانوا، فإن تسليم الوطن للعدو لا يقدم عليه إلا فرد أو نفر حاقد على الشعب، عدو له. هذا يندر وجوده بين أبناء المسلمين إلا قوما كفروا بدينهم وآمنو بعقائد أخرى.

فإن صح أن جبهة خانت قومها، وباعت للعدو وطنها ـ وطن المسلمين ـ فكيف سقطت سائر الجبهات، و كيف حاقت الهزيمة بالجميع؟

الحق أن الخيانة ـ وأن ثبت أنها وقعت جزئياً ـ ليست هي السبب

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٢ ـ ١٧٣.

العام للهزيمة الكبرى والإنهيار المروع الذي أصاب الجبهات كلها.

والسر في تركيز بعض الناس على تهمة الخيانة هو حرصهم على استمرار الأوضاع الظالمة والأنظمة الكافرة في البلاد العربية كما هي، وإنما يجب فقط أن تتغير الوجوه والأدوار فوق مسرح السياسة العربية. أما موضوع الرواية فيبقى بلا تبديل ولا تحويل.

معنى الاتهام بالخيانة أن الأوضاع سليمة والأنظمة لا غبار عليها، والحكم لا عيب فيه. إنما العيب يتركز في شخص أو أشخاص إذا تغيروا تغير التاريخ وتغير المصير.

وبعض الناس يسهل عليهم أن يخونوا جيشاً بأكمله بل شعبا بأسره لكي يبرئوا شخصا واحدا من كل تفريط، ويعفوه من كل تبعة، لأنه عندهم «الإمام المعصوم» والبطل الأسطوري الذي يصيب ولا يخطيء، ويَغلب ولا يُغلب، فإذا غُلب يوما فليس العيب منه بل من الأخرين من الجيش أو من الشعب.

من الخونة الذين سرقوا منه «خاتم سليمان» الذي كان يصنع به المعجزات، ويسحر العفاريت!

* * *

• التخلف الحضاري

وقال قوم: أن سبب الهزيمة هو: تخلفنا الحضاري، واختلاف مستوى التعلم بيننا وبين إسرائيل، وإذا التقى مجتمع متخلف ومجتمع عصري متحضر فالغلبة للمجتمع المتحضر لا محالة.

كتب هذا الكلام بعض «التقدميين» أو «الثوريين» العرب عقب

الهزيمة، فرد عليهم الأستاذ محمد جلال كشك. بمقال أصابهم في مقاتلهم، ومما جاء فيه: «والخطورة الحقيقية في هذا التفسير، تكمن في أنه يحاول أن يضلل الجماهير العربية عن القضية الرئيسية، قضية العقيدة... الدين...».

فليس ثمة خلاف على أهمية الآلات، ولا أظن أن مجتمعاً من المجتمعات لا يعرف أهمية أن تكون لديه طائرات ودبابات من أحدث طراز، حتى ولو لم يبذل أي جهد في امتلاكها... وشهد الله وشهد التاريخ أن الجماهير ما بخلت بشيء في سبيل أن تمتلك، . وما رفضت يوما أن تتعلم.

ولا نظن أن الجنس البشري بحاجة إلى من يعلمه فضل التكنولوجيا، وأهمية المخترعات الحديثة... وليس في العرب اليوم من يفضل الحمار على السيارة... أو لمبة الغاز على المصباح الكهربائي... ولو كان لثوار فيتنام من سبيل إلى قنبلة ذرية... لدفعوا فيها ملايين من أرواح شعبهم.

لماذا إذن هذا الجدل؟ وأين هو الكشف العبقري الذي اكتشفوه... وهل كنا بحاجة إلى مثل هزيمة ٥ يونيو لنكتشف أهمية العلم؟

وما الذي حال بيننا وبين «العصرية» طوال هذه السنوات؟ وهل عرفنا من العصرية، إلا منعه الطلاق وتعدد الزوجات، وإنشاء الفرق الراقصة، والهوس في النقاش حول الأختلاط في المدارس كأنها قضية مصيرية»؟

ويمضي الأستاذ كشك في رده فيقول:

«ما أعجب أن تعمى قلوبنا عن تاريخنا، فلا نستخلص منه العبرة والتجربة.

فعندما خرج الحفاة العراة، رعاة الشاة من الجزيرة العربية يدكون ملك كسرى، ويجبرون قيصر على إلقاء نظرة كسيرة على سوريا، وهو يقول: وداعا يا سوريا... وداعا لا لقاء بعده.

هل كان العرب متفوقين تكنولوجيا على فارس وروما.؟

هل كان المجتمع الإسلامي بالمقاييس المادية أكثر عصرية وتمدينا من المجتمع الروماني بكل حضارته وعلمه ومدنيته؟.

أم كان أكثر تقدما وتفوقا على عرش فارس ومدنية الفرس، وعلم الفرس وصناعة الفرس؟

لا... فالعربي الذي أسر ابنة كسرى، افتدوها منه، فطلب ألف درهم! قالوا: لو طلبت مائة ألف لدفعنا. رد العربي المنتصر: كنت أحسب أن الألف نهاية العدد!

وحكى عبيد بن جحش السلمي، قال: «لقد رأيتنا وإنا لنطأ على ظهور الرجال، من جيش الفرس، ما مسهم سلاح قتَل بعضهم بعضاً، ولقد رأيتنا أصبنا جراباً من كافور، فحسبناه ملحاً لا نشك أنه ملح، فطبخنا لحماً، فجعلنا نقليه في القدر فلا نجد له طعماً، فمر بنا رجل معه قميص فقال: يا معشر العرب، لا تفسدوا طعامكم فإن ملح هذه الأرض لا خير فيه، هل لكم أن تأخذوا هذا القميص؟ فأخذناه منه وأعطيناه منا رجلاً يلبسه. فجعلنا نطيف به ونعجب منه، فلما عرفنا الثياب (تأمل) إذاً ثمن ذلك القميص درهمان».

بهؤلاء الذين لا يعرفون في العدد أكثر من ألف... والذين لا يعرفون الكافور من الملح... والذين ما كانوا بعد قد عرفوا

الثياب... انتصر الإسلام، ودك ملك كسرى، وانتشروا يحكمون الأرض من البحر الأبيض المتوسط إلى أواسط آسيا... أفكان نسبة هؤلاء للحضارات العريقة المحيطة بهم... أقرب من نسبة الفلاح العربي للجندي الإسرائيلي؟.

فلماذا انتصر هؤلاء... وعجزنا نحن؟

لقد فاجأهم الفرس بسلاح ما عرفوه ولا جربوه... الفيل... حتى أنه لما جيىء به إلى المدينة بعد ذلك... طافت به النسوة متعجبات، وهن يقلن: «هذا من صنع الفرس»!! ولم يصدقن أنه من مخلوقات الله!... ظنوه آله أو حيلة فارسية؟!.

ومع ذلك لم يجبنوا ولا فروا أمام الفيل...

يروي الطبري: «ولما رأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب، أرسل إلى أولئك المسلمة من الفرس الذين أسلموا فدخلوا عليه فسألهم عن الفيلة، هل لها مقاتل؟ فقالوا نعم، المشافر، والعيون لا ينتفع بها بعدها... فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو: أكفياني الأبيض، وكانت كلها آلفة له، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبا في خيل ورجل فقالا: اكتنفوه لتحيروه، وهما مع القوم، فلما خالطوهما اكتنفوهما فنظر كل واحد منهما يمنة ويسرة، وهما يريدان أن يتخبطا والفيل متشاغل بمن حوله، فوضعا رمحيهما معاً وفي وقت واحد في عيني الفيل الأبيض، فقبع ونفض رأسه، فطرح سائسه، ودلى مشفره فنفخه القعقاع، فرمى به، ووقع لجنبه، فقتلوا من كان عليه...».

ما الذي يدفع القعقاع وعاصماً إلى مواجهة الفيل الذي ما عرفوه ولا قاتلوه... بالرماح... وكيف تقوى أعصابهما إلى حد أن يضعا معاً وفي وقت و احد الرمح في عيني الفيل!.. وفوقه عشرون مقاتلاً؟!، وما الذي يجعل القعقاع وعاصم اليوم يغادران دبابة زنة ستين طناً من الصلب لو آوى إليها ابن نوح لعصمته من الماء والنار... إلا من أمر الله...»[1].

* * *

• الدين هو السبب!

وأعجب ما قرأنا في تعليل الهزيمة أن سببها هو الدين: الدين!

هكذا كتب الأديب المهجري المعروف «ميخائيل نعيمة» في استفتاء أجرته مجلة «الآداب» البيروتية بعد نكبة حزيران. وسكتت عليه المجلة سكوت المقر.

قالت المجلة: ما هو في رأيكم الدرس الأكبر الذي يحسن بالعرب أن يتعلموه من الهزيمة؟

وقال الكاتب: «في رأيي أن الدرس الأكبر الذي يجب أن يتعلمه العرب من هزيمتهم النكراء: أن الدنيا لا تساس بالدين. فالدين موطنه السماء التي لا يعرفها أحد، والدنيا موطنها الأرض التي لا يجهلها أحد...»

---

(١) «الوعي الإسلامي» العدد الرابع والثلاثون. السنة الثالثة ـ تحت عنوان «الطريق إلى مجتمع عصري».

إلى أن قال: «فإذا كان العرب ممن يعتقدون أن حقوقهم لا تصان ولا تسترد إلا بالحرب، وأن الحرب لا يكسبها إلا السلاح، وأن السلاح لا يخلقه إلا العلم والمال فما عليهم إلاّ أن يتعبدوا للعلم والمال، لعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم»[1].

وهذه الكلمات إنما هي خيال شاعر، لا فكرة حكيم. وهو مع هذا خيالٌ متهافت سقيم. والخطورة ـ كما قال الأستاذ محمدمبارك[2] ـ أن يظن كل أديب كبير، مفكراً كبيراً. وليس الأمر كذلك. أن الشاعر الذي يعيش هناك وراء البحار، يظن العرب هنا يقيمون في زوايا العبادة، بين ليل قائم ونهار صائم، ناءت رؤوسهم بحمل العمائم، وأيديهم بحمل المسابح.

فلما شبت نار الحرب دخلوها وسلاحهم التمائم والتعاويذ.

وهذا الخيال كله باطل. فالحكومات التي اشتركت في الحرب حكومات عصرية تعتمد على أحدث الأساليب، في الأسلحة والتدريب، وهي كلها حكومات علمانية تفصل الدين عن الدولة، إن لم يقم بعضها باضطهاد الدين والتضييق عليه. ولو أن الشاعر المهجري قال: أن سبب النكبة هو التدين المدخول أو الزائف لكان له وجه.

ولقد كان الشاعر نزار قباني الذي لم يعرف باتجاه روحي كميخائيل نعيمة ـ أدنى إلى السداد في تعقيبه على النكبة بقصيدته

---

(١) مجلة الآداب ـ عدد تموز (يوليو) ١٩٦٧.

(٢) في كتابه «جذور الأزمة في المجتمع العربي».

الشهيرة «هوامش على دفتر النكسة» فقد جاء فيها:

«لا تلعنوا السماء. إذا تخلت عنكمو. لا تلعنو الظروف.

فالله يؤتي النصر من يشاء... وليس حدّاداً لديكم يصنع السيوف».

وصور الفراغ الروحي والأخلاقي للأمة فقال:

«جلودنا ميتة الإحساس

أرواحنا تشكو من الإفلاس

أيامنا تدور بين الزار والشطرنج والنعاس

هل نحن خير أمة قد أخرجت للناس»؟

والجواب بداهة: لا. فالله قد خاطب هذه الأمة بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] فأين منا هذه الخصائص والنعوت؟

ويصف «نزار» التدين الكاذب المنحرف فيقول:

«نقعد في الجوامع

تنابلاً كسالى

نشطّر الأبيات أو نؤلّف الأمثالا

ونشحذ النصر على عدونا... من عنده تعالى»!

وعلى أية حال، قد كان الدين معزولاً ـ تماماً ـ عن المعركة، ولم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

يكن له فيها دور إيجابي ولا سلبي. لا قبل المعركة ولا في أثناء المعركة.

كان هناك حرص شديد من أكثر المسؤولين على إبعاد العنصر الديني عن الحرب، لأسباب واعتبارات لا محل لها هنا.

بل الذي يذكره الشعب العربي ـ قبل المعركة بأيام ـ أن الدين كان عرضة للهجوم والسخرية والقذف بالحصى والحجارة حتى اجترأ مجترىء أن يكتب في صحيفة علنية رسمية هذه العبارات:

«... والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الإنسان الإشتراكي العربي الجديد، الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع و الرأسمال والأستعمار والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ـ ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ»[1].

ولقد شهدت بنفسي في قطر في الساعات الأولى للمعركة، اجتماعاً في مقر «منظمة التحرير» ضم المئات بل الألوف من الناس، ووقف رجل عالم فاضل من أهل البلاد يخطب في هذا الجمع وكان مما دعا إليه في كلمته: أن ارجعوا إلى الله وتمسكوا بدينه ينصركم على عدوكم فما كان من بعض الشباب المفتونين بعبادة الأوثان البشرية إلا أن قالوا: لا دين إلا السلاح!

هذه هي الروح التي كانت سائدة هنا وهناك. فكيف يزعم زاعم أن الدين سبب الهزيمة؟!! وأن علينا أن نتخلى عن الدين لننتزع النصر من أحشاء الهزيمة؟

---

(١) من مقال المدعو «إبراهيم خلاص» في مجلة «جيش الشعب» السورية.

وأنكر على رجل غلبه آخر فقال: حسبي الله ونعم الوكيل.

فقال: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

وحين ترك رجل ناقته أمام المسجد سائبة بزعم التوكل قال له: «اعقلها وتوكل».

أن ديناً هذا شأنه وتلك بعض تعاليمه، يستحيل أن يكون سببا لهزيمة... أي هزيمة.

* * *

• أخطر من النكبة:

تلك ضروب من التفكير ظهرت على الساحة العربية بعد نكبة ١٩٦٧. تحاول تعليلها أو تفسيرها. منها ما هو سيّء التصور، ومنها ماهو سيّء القصد، ومنها ما جمع بين السوءين.

وهذا التفكير الأعوج في تعليل هذه الطامة أو القارعة هو الذي سماه كاتب عربي مسلم: «أخطر من النكسة»[1].

وهذا حق. فإن أخطر من المرض أن تظل تتعاطى أسبابه ومضاعفاته من حيث تدري أو لا تدري. إن نتيجة هذا السلوك شيء واحد لا مفر منه، اسمه «الموت».

وإذا كانت أمتنا لا تريد أن تموت، فلتفتش عن السبب الحقيقي

---

(١) عنوان لكتاب أصدره الأستاذ محمد جلال كشك منذ أشهر. ويبدوا أن الكاتب استعمل كلمة «النكسة» لشيوعها على الأقلام والألسنة.

الذي جرها إلى هذه الهاوية: ما هو؟ فإن تشخيص الداء ومعرفة أسبابه هو الطريق السليم لوصف العلاج الناجع، والدواء الشافي.

* * *

• السبب الحقيقي للهزيمة:

وإذا لم يكن الغلط العسكري ولا الخيانة ولا التخلف ولا الدين أسباباً للهزيمة النكراء فيا ترى ما سببها؟ أم تراها وقعت اعتباطاً بلا سبب؟

أما نحن فنؤمن بقانون السببية ومبدأ العلية في الكون كله.

فلا يحدث فيه حدث صغر أو كبر إلا بسبب، فكيف بحدث ضخم كنكبة ١٩٦٧؟

وأما ما هو السبب الذي أنتج هذه الكارثة؟

فالحقيقة إنها أسباب عدة، كلها فروع لسبب واحد أصيل عميق. هو أن هذه الأمة نسيت نفسها، وفقدت شخصيتها.

وذلك حين نسيت الله، وفقدت منهجه وهداه.

إن للأمة روحاً كما للفرد. الفرد بغير روح يكون مجرد شبح وجثة لا حركة فيها ولا حياة. وكذلك الأمة إذا فقدت روحها، تصبح هيكلا قد يعجب الناظرين، ولكنه فارغ من كل معاني القوة والحياة والابداع.

وإن لكل أمة روحا به تحيا وبه تتحرك، وبه تكافح وروح أمتنا هو الإيمان، هو الإسلام. فإذا انطفأت جذوة هذا الروح أو ضعفت: فقد تحولت الأمة من حركة إلى همود، من نار إلى رماد.

إن السبب الحقيقي لنكبة ١٩٦٧ هو نفس السبب لنكبة ١٩٤٨. وهو السبب الذي أضاع الأندلس إلى اليوم، وأضاع فلسطين ما يقرب من قرنين في أيدي الصليبيين.

إنه التخلي عن الإسلام وتعاليم الإسلام. وأنا أعني «الإسلام الصحيح» بعقائده وعباداته وشرائعه وأنظمته وأخلاقه وآدابه ومفاهيمه وأفكاره، وعواطفه ومشاعره. فالإسلام كل لا يتجزأ.

(أ) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام فقدان روح التضحية وحب الإستشهاد في نفوس أبنائنا وجنودنا، مما أضعف روحنا المعنوية أمام أعدائنا. وهذا هو «الوهن» الذي حذرنا منه رسولنا ـ ﷺ ـ حين قال «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أمن قلة نحن يومئذٍ يارسول الله؟: بل أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

وهذا هو الوهن الحقيقي الذي لا يعالجه كثرة السلاح، ولا براعة التدريب ولا قوة التنظيم ولا مهارة القيادة في التخطيط والتكتيك.

(ب) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال العرب عن أخوانهم المسلمين الذين يبلغ عددهم نحو ٦٠٠ مليون مسلم في أنحاء المعمورة. لأن تبنينا للقومية العلمانية وإيماننا بها تقليداً للغرب الذي آمن بها بالأمس، وبات يكفر بها اليوم، جرّنا إلى مجافاة الأمة الإسلامية الكبيرة، وعدم الأعتراف بها، لأن كل تجمع أو حتى تضامن

أو تقارب على أساس العقيدة والدين مظهر من مظاهر التخلف والرجعية يجب أن نبرأ منه حتى نكون عصريين تقدميين!

ومثل ذلك انفصال بعض الحكومات التي تنتسب إلى الإسلام عن اخوانهم العرب، حين تبنوا هم كذلك مبدأ القومية العلمانية، فوجدنا بعض هذه الحكومات القومية يعترف بإسرائيل أو يتعامل معها بصورة من الصور، أو يقف من مأساة فلسطين موقفاً سلبياً كأن الأمر لا يعنيه... وكان المفروض أن تهب الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها من المحيط إلى المحيط، لتذود عن أرض الإسلام، وشرف الإسلام، ولكن كيف توجد الأمة الإسلامية وقد فرقتها العصبيات القومية والإقليمية، والمناهج والأنظمة الأرضية والوضعية، والمؤامرات اليهودية والإستعمارية والأنانيات الحزبية والشخصية؟!.

(جـ) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال العرب أنفسهم عن بعض، فأنهم حين اتخذوا غير دين الله منهجاً وطريقاً، وغير كتابه أماما ودليلاً، وغير رسوله قائداً وهادياً، تفرقت بهم المناهج، واختلفت عليهم السبل، وتشتتوا بين مختلف المذاهب والأفكار.

فهذا ينتمي إلى اليمين، وذاك ينتمي إلى اليسار، وبين اليمين واليسار منازع واتجاهات من يمين اليمين إلى يسار اليسار. واليمين نفسه ألوان وضروب لكل منها قبلته، من واشنطن إلى لندن إلى باريس، واليسار ألوان: أحمر وأصفر، وبينهما بعد ما بين موسكو وبكين.

وهكذا تفرق العرب شيعاً وأحزاباً، ودولاً أو دويلات، صنفها المصنفون إلى ثوريين ومحافظين وإلى تقدميين ورجعيين.

ولم يكن في الإمكان أن تجمعهم فكرة واحدة، أوتضمهم راية واحدة، لأن الفكرة الفذة التي يمكن أن تجمعهم، والراية الوحيدة التي يمكن أن تضمهم هي فكرة الإسلام، وراية القرآن، وقد تخلوا عنهما فكانوا طرائق قددا.

وهذا ما حذر منه القرآن حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

فلما جد الجد، وتلبدت السماء بالغيوم كان العرب حديثاً أشبه بما كان عليه اليهود قديماً ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[2].

(د) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال الحكام عن الشعوب في البلاد العربية، فقد أصبح الحكام في واد والشعوب العربية المسلمة في واد، فالحكام يؤمنون بمذاهب وضعية، وفلسفات علمانية، ويحكمون بقوانين أجنبية عن شريعة الله وهي شريعة الأمة. أما جماهير الشعوب فلا زالت مؤمنة بربها ودينها وقرآنها ومحمدها. وترى أن كل خير في اتباع هدى الله والعمل بشريعة الله، وأن كل شر وخسران في الأنحراف عن صراط الله، وعن هدى رسول الله.

والحكام مشغولون بتوطيد سلطانهم، وتثبيت كراسي حكمهم، باضطهاد كل فرد أو جماعة أو حركة تعارضهم، أو تحاسبهم، أو تقول لهم: لم؟ وكيف؟ فضلا عن أن تقول لا، ومن تجرأ وقال: «لا» فمآله السجن أو النفي أو حبل المشنقة. والشعوب مشغولة بهم لقمة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٤.

العيش، وطلب الحرية والأمن، فأن الأنظمة التي تحكمهم لم تطعمهم من جوع، ولم تؤمنهم من خوف.

فلما سمعت جماهير هذه الشعوب أن هؤلاء الحكام سيحاربون لم تصدق عقولهم ما سمعته آذانهم، فقد عرفوا بفطرتهم وتجربتهم أن هؤلاء الحكام لا يعنيهم حرب اليهود بقدر ما يعنيهم القضاء على المعارضين للحكم. ولما بدأ اليهود بالضرب،، وتورط هؤلاء في الحرب، كانت ضمائر هذه الشعوب في حيرة وألسنتها تتلعثم في الدعاء لهم بالنصر و التمكين.

فقد ذاقت على أيديهم من المظالم ما جعلها تخاف من انتصارهم مثل ما تكره من هزيمتهم. ولقد قال وكيل الأزهر في مؤتمر علماء المسلمين الذي انعقد في رجب الماضي ١٣٨٨ هـ في كلمته نيابة عن «الأزهر»:

«أننا لو انتصرنا ـ على ما كان بنا من عيوب وانحراف ـ لازددنا جرأة على محارم الله».

وهذا هو الشعور الذي كان يسود جماهيرنا المسلمة، قبيل وأثناء الحرب. وكفى بهذه الحال تعبيراً عن الفجوة الفسيحة والهوة العميقة التى حفرها هؤلاء الحكام بينهم وبين جماهير شعوبهم. وصدق الشاعر:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا!!

(هـ) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال الشعب نفسه بعضه عن بعض، فلقد أثار هؤلاء الحكام بمبادئهم المستوردة فئات

الشعب بعضها على بعض. وشككوا المواطنين في كل بلد بعضهم في بعض. وأصبح الناس في البلد والواحد، بل في الأسرة الواحدة. يخاصم بعضهم بعضاً. ويخاف بعضهم بعضا، ويكره بعضهم بعضا. بعد أن كانوا من قبل ـ بفضل الإيمان ـ كالبنيان المرصوص، أو كالجسد الواحد، في تعاطفهم وتوادهم وتراحمهم، وبعد أن كانت الأخوّة هي شعارهم والراية التي تجمعهم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1].

ولقد بات الأب في واد وأبناؤه في واد: انفصال نفسي وفكري بين الجيلين. لبعد المسافة بين القديم والجديد، بين المحافظة والتحرر. وبات الأخوة الأشقاء أولاد الأب الواحد و الأم الواحدة، وكأنهم أجانب بعضهم عن بعض، فرقت بينهم الأفكار والمباديء و المذاهب التي أصبح كل واحد منها «دينا» يتعبد له، ويعتز به.

(و) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انطلاق الغرائز الدنيا، وطغيان الشهوات البهيمية وانتشار المجون و الفسق، والتحلل من عقدة الفضائل والمثل العليا، فالعفاف والإحصان والاحتشام والحياء من أخلاق الرجعية المتزمتة، وخصائص المجتمعات المتخلفة التي لم تَرَ نُورَ القرن العشرين.

أما اللهو والخلاعة والصور العارية أو شبه العارية والقصص الخليعة، والأدب المكشوف والغناء الفاحش، والأزياء المثيرة فهذه هي سمات الحضارة، وعنوان التمدن. وشارة التحرر من ربقة التقاليد العتيقة البالية.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠

فلا تعجب إذا وزعت ـ قبل المعركة بأيام ـ عشرات الآلاف من صور المطربات والممثلات على الجنود المرابطين في خط النار، تشجيعاً لهم، وتقوية لروحهم!!

(ز) وأخيراً كان من نتائج تخلينا عن الإسلام: أننا دخلنا المعركة بمعزل عن الله، شاعرين بالاستغناء عنه، ذاكرين كل اسم إلا اسمه، منتظرين كل عون إلا عونه، مترقبين أي مدد إلا مدداً يأتي من عنده.

كانت الإذاعات العربية تشجع الجنود والضباط قائلة: قاتلوا باسم فلان واسم علان.

كانت بعض الإذاعات تلهب حماس المحاربين في ساعات القتال الرهيبة بمثل هذه الكلمات: قاتلوا واضربوا واسحقوا العدو. إن الفنانين والفنانات من ورائكم... إن فلانة المطربة معكم والأخرى الممثلة بجانبكم.!!

أما الله وملائكته وتأييده فلم يكن في الحساب..

دخلنا المعركة والغرور حشو رؤوسنا، والرياء ملء أنفسنا والكبر ملء أنوفنا، لم ندخلها في تواضع المؤمنين، وزهد المخلصين، وصدق التائبين، وتوبة الصادقين.

لم يقل قائد لزملائه أو جنوده يوم الحرب ما قاله خالد يوم اليرموك: إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا لله بعملكم فان هذا يوم له ما بعده.

وهكذا خضنا الحرب بلا عقيدة، وقاتلنا بلا إيمان... خضناها متوكلين على الروس، فخذلنا الروس، معتمدين على السلاح فلم ينفعنا السلاح.

لقد وضع القرآن للمؤمنين شروط النصر عند اللقاء فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

فهل راعينا هذه الشروط الستة ونفذناها؟ بل هل وعيناها وحفظناها؟ بل هل خطرت لقادتنا على بال؟ كلا ثم كلا.

لا عجب إذن ـ وقد تخلينا هكذا عن الإسلام ـ أن يحجب الله نصره عنا، وأن يسلط علينا عدوه وعدونا، فإنه لم يعد بالنصر إلا من نصره وأعز دينه: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

هذا هو في نظري السبب الحقيقي للهزيمة، وهو سبب أعمق جذوراً، وأبعد مدى وأطول عمراً من حرب حزيران. فان ساعة الحرب هي ساعة الحصاد لما زرع في أيام السلم.

فليت شعري لماذا يقحم فريق من الناس اسم الدين واسم الله بعد الهزيمة؟ وعندما كانوا يظنون النصر قريباً لم يجر ذكر الله على ألسنتهم ولم يخطر على قلوبهم. وإنما ذكروا «هبلهم» و «مناتهم» و «عزاهم» وسائر آلهتهم التي يلتمسون عندها المدد والعون.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٥ ـ ٤٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٤٠ ـ ٤١.

أجل، لقد كانوا ينتظرون المعونة من أي جانب إلا من الله، ويتطلعون إلى كل جهة إلا إلى السماء، فلا غرو أن وكّلهم الله إلى أنفسهم وآلهتهم التي يدعون من دون الله.

وتالله لو انتصروا ـ وهيهات ـ ما جعلوا لله ولا لدينه فضلاً في ذلك، ولكان فضل النصر حينئذ للاسلحة الروسية، والمساعدات الروسية، وبراعة القيادة الثورية، ولكنهم ـ وقد انهزموا ـ يريدون أن يحملوا أوزار هزيمتهم على كاهل الدين المفترى عليه.

كان من الأسئلة التي سمعناها بعد النكبة ـ يطرحها الملحدون على أهل الإيمان ـ هذا السؤال: أين الله؟! ولماذا تخلى عنا وكان مع اليهود؟ ألم يعد المؤمنين بالنصر فأين النصر؟ وهو سؤال غريب من قوم لم يكن الله لهم يوماً على بال إنما أرادوا ـ بمكرهم ـ أن يأخذوا زمام المبادرة ويسألون المؤمنين: أين معونة الله؟ قبل أن تسألهم الجماهير المؤمنة: أين عون آلهتكم في موسكو وأين نجدتهم عند الشدة؟.

إن الله موجود أيها الشيوعيون ـ وهو الذي خذلكم. ومكن اليهود منكم لأنهم أقرب إلى رعاية سنن الله منكم، قال عمر لقائده: إنما ننتصر بمعصية عدونا لله وطاعتنا له.

فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة.

الله موجود يا عبّاد ماركس ولينين، ولكنه ـ سبحانه ـ لا ينصر إلا من نصره، أي نصر دينه، وأقام حدوده، ونفذ أحكامه، وهل نصرتموه حتى ينصركم؟.

إن نصره ـ جل شأنه ـ مشروط بالإيمان، فهل وفيتم بالشرط حتىٰ يفي لكم بالوعد؟ هل حققتم شروط الإيمان، وتحليتم بأخلاق المؤمنين؟ هل كنتم من ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾[1]؟ هل كنتم من ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[2]؟ هل كنتم من الذين قال الله فيهم ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ ﴾[3]؟.

ولا أحسبكم تجادلون أنكم على شيء من هذه الخصال فضلاً عن أن تتمتعوا بها كلها كما هو شأن المؤمنين الصادقين.

* * *

• أعطني إسلاماً أعطك نصراً:

لقد زرت تركيا في صيف ١٩٦٧ بعد النكبة الثانية فكانوا في استياء شديد لما حل بالعرب، وقالوا لي: كيف ينهزم الإسلام أمام اليهودية؟ فقلت لهم: إن الإسلام لم ينهزم وما انهزم قط، والإسلام لم يدخل هذه المعركة أبداً. إنما الذي يحمل عارها هو الثورية العربية التي جرَّت العرب جميعاً إلى هذه الحرب ظانة أنها لن تتعدى الصياح والتهديد وعرض العضلات! ولي رأي قلته في أكثر من مناسبة: أن

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٣) سورة النور، الآية: ٥١.

الحرب طوال السنين العشرين الماضية كانت بين العرب واليهود ولم تكن بين المسلمين واليهود.

فالعرب يخوضون الحرب بوصفهم «عربا» لا بوصفهم «مسلمين». ويوم يخوض العرب المعركة «مسلمين» كما كان خالد وأبو عبيدة وسعد، سيتحول سير الأحداث ويتغير اتجاه التاريخ.

* * *